المحاضرة 08: تطور الفكر السياسي الغربي الليبرالي.

منذ فجر التاريخ والصراع الفكري السياسي قائم حول البحث عن أفضل الوسائل للتوفيق ما بين الحق الجماعي من جانب وصيانة الحقوق الفردية وحرياتهم من جانب آخر فقد برزت العديد من النظريات التي تناولت حالة الفصل ما بين هاتين الغريزتين في بناء الدولة الفردية، وإن التطورات التي شهدتها المجتمعات الأوربية في المرحلة التي أعقبت قيام الدول القومية ساهمت في بروز العديد من النظريات ومن بين هذه النظريات " الليبرالية" أو ما يسمى بالإيديولوجية الليبرالية.

1. **مفهوم الليبرالية:** يعتبر مصطلح الليبرالية من أكثر المفاهيم تشعبا فقد قررت موسوعة لالاند الفلسفية الالتباس الحاصل في مفهوم الليبرالية فجاء فيها "نرى من خلال التعريفات السابقة مدى الالتباس هذا اللفظ ومما يزيد في التباس استعماله الطارئ المتداول في أيامنا للدلالة على الأحزاب أو النزاعات السياسية"، وفي الموسوعة العربية العالمية تعتبر الليبرالية مصطلحا غامضا لأن معناها وتأكيداتها تبدلت بصورة ملحوظة بمرور السنين، ويمكن القول أن الليبرالية هي مذهب فلسفي سياسي، ويشير مفهومها لغويا إلى الحرية إذ أن جذوره تعود إلى المفهوم الإنجليزي "Liberalism" ويعني التحررية من اشتقاق (Liberty) وتعني الحرية، وقد وصفت بالحرية المطلقة، ويرى دونالد سترومبرج " أن الليبرالية مصطلح عريض يلفه الكثير من الغموض والإبهام".

وتعددت المفاهيم حول الليبرالية إذ جاء في المعجم الفلسفي أن الليبرالية هي " مذهب يقوم على احترام حرية الفرد واستقلاله ومنحه أكبر قدر ممكن من الضمانات ضد أي تعسف"، ويعرفها **جون ستيورات ميل** " هي إطلاق العنان للناس ليحققوا خيرهم بالطريقة التي يرونها طالما لا يحرمون الغير من مصالحهم أو لايعوقون جهودهم لتحقيق تلك المصالح..." ويمكن القول أن الليبرالية هي **" مذهب فكري يركز على الحرية الفردية، ويرى وجوب احترام استقلال الأفراد ويعتقد أن الوظيفة الأساسية للدولة هي حماية حريات المواطنين مثل حرية التعبير والتفكير والملكية الخاصة والحريات الشخصية"** ويمكن أن نضيف أيضا أن الليبرالية هي الحد من تدخل الدولة.

2. **التأصيل التاريخي لليبرالية:** اختلف الباحثون في تاريخ الليبرالية كمنتظم فكري إذ يرجعها الكثير إلى فكر السوفسطائي خلال الفترة الإغريقية، ونتيجة للتغيرات الاجتماعية التي عصفت بأوربا مع بداية العصر الحديث بدأت الليبرالية تتبلور كنظرية في السياسة والاقتصاد والاجتماع على يد العديد من المفكرين أبرزهم "جون لوك" والذي يرجعه الكثيرين أنه أول من تحدث عن الليبرالية من خلال تركيزه على الحقوق الطبيعية والتي يقصد بها (الحرية والملكية الخاصة)، و"آدم سميث" و"جون ستيوارت ميل" في كتابه "في الحرية" و"جون جاك روسو"، ولم يتم تداول مصطلح الليبرالية كلفظ إلا سنة 1810 في اسبانيا، وقد نشأت الليبرالية نتيجة تسلط الكنيسة وتعسف الإقطاعيين في القرون الوسطى مما أدى إلى انتفاضة الشعوب خاصة الطبقة الوسطى وبدأت تطالب بالحرية والإخاء والمساواة وقد ظهر هذا جليا خلال الثورة الفرنسية 1789م.

3. **الأسس الفكرية لليبرالية:** تقوم الليبرالية على أسس فكرية هي

أ- **الحرية:** حاء في إعلان حقوق الإنسان والمواطن الفرنسي عام 1789م تعريف الحرية بأنها " حق الفرد بأن يفعل كل ما لا يضر الآخرين، ولا يمكن اخضاع الحقوق الطبيعية لقيود إلا من أجل تمكين أعضاء الجماعة الآخرين من التمتع بحقوقهم وهذه القيود لا يجوز فرضها إلا بالقانون، فالفرد حر في أفعاله ومستقل في تصرفاته دون أي تدخل سواء من الدولة أو أي مؤسسة أخرى، فالليبرالية من الناحية الفكرية تعني (حرية التفكير والاعتقاد والتعبير) ومن الناحية الاقتصادية (حرية الملكية الشخصية وحرية الفعل الاقتصادي المنتظم وفق لقانون السوق) وعلى المستوى السياسي تعني (حرية التجمع وتأسيس الأحزاب واختيار السلطة).

ب- **الفردية:** إن الليبرالية تدفع بالفرد إلى المقدمة وتمجده وتقدم الحجة بأن الأفراد هم الذين يصنعون المجتمع وأن سعادة الفرد هي رفاهية المجتمع لذلك وجب على الدولة أن تترك الفرد حرا ليعمل على تنمية مصالحه الشخصية وعلى الدولة أن تقف بعيدا ويكون واجبها الأوحد هو حماية الفرد ومصالحه.

ت- **العقلانية:** وتعني استقلال العقل البشري دون الحاجة إلى قوى خارجية فما دامت الحقوق التي يسعى لتأكيدها هي حقوق طبيعية فإن طريقة معرفتها هي العقل، كما أن القانون الذي يضبط الحرية يعتمد بالأساس على القانون الوضعي الذي يعتمد على العقل البشري.

4- **تطور الليبرالية:** أخذت الليبرالية أطوارا متعددة بحسب الزمان والمكان وتغيرت مفاهيمها وقد مرت الليبرالية بمرحلتين بارزتين " الليبرالية الكلاسيكية والليبرالية الحديثة".

أ- **الليبرالية الكلاسيكية:** يعتبر جون لوك أبرز فلاسفة الليبرالية الكلاسيكية ونظريته مرتبطة بالليبرالية السياسية وتنطلق نظريته من فكرة العقد الاجتماعي معتبرا أن السلطة أو الحكومة مقيدة بقبول الأفراد لها ولذلك يمكن السحب الثقة منها، كما برز آدم سميث بالليبرالية الاقتصادية وهي الحرية المطلقة في المال دون تدخل من الدولة أو تقييد، فيؤكد على إبعاد الدولة عن التدخل في الاقتصاد، فالسوق نفسه ينظم الاقتصاد وسوف يزدهر المنتجون الأكفاء ويختفي غير الأكفاء، وكذلك فإن العرض والطلب يحددان السعر، ففي السوق الحر تتولى "اليد الخفية" تنظيم الاقتصاد وتصحيحه، ويمكن القول أن الليبراليون الكلاسيكيون يؤمنون بالأنانية الفردية، والحرية السلبية، وينظرون إلى الدولة أنها شر لا بد منه فهم يؤمنون بدولة الحد الأدنى، فالدولة يقتصر دورها على الحفاظ على النظام الداخلي وتفعيل العقود وحماية المجتمع من الهجوم الخارجي، وقد تكونت الديمقراطية والرأسمالية من خلال هذه الليبرالية.

ب- **الليبرالية الحديثة:** تعرضت الليبرالية مع بداية القرن العشرين إل العديد من الهزات، فقد أحدث التصنيع توسعا ضخما في ثروة البعض لكنه في نفس الوقت كان مصحوبا بانتشار أحياء الفقراء والفقر والجهل والمرض فأصبح تجاهل عدم المساواة الاجتماعية أكثر صعوبة نتيجة انخفاض الأجر والبطالة والظروف المهنية للعمل والمعيشة، كما كان للأزمة الاقتصادية في ثلاثينيات القرن العشرين دور بارز في ضرورة إعادة التفكير في دور الدولة وصلاحيات تدخلها لأن الليبرالية الكلاسيكية لم تعد قادرة على معالجة المظالم والتفاوت في المجتمع المدني لذلك صار الليبراليون المحدثون مستعدين لإقامة دولة تداخلية أو تمكينية،

ويحبذ الليبراليون الجدد اليوم التنظيم النشط من قبل الحكومة للاقتصاد من أجل صالح المنفعة العامة فهم يؤيدون برامج الحكومة لتوفير ضمان اقتصادي ولتخفيف من معاناة الإنسان، وهذه البرامج تتضمن التأمين ضد البطالة، قوانين الحد الأدنى من الأجور، ومعاشات كبار السن، والتأمين الصحي.

5- رواد الفكر الليبرالي:

جون لوك (1632- 1704)

ولد سنة 1632 من عائلة انجليزية متدينة نتيجة لاهتماماته السياسية تضايقت الحكومة منه فنزح إلى فرنسا ثم عاد بعدها غادر إلى هولندا، كانت فلسفته ذات طبيعة مادية تقوم في جوهرها على المبادئ المستخلصة من تجربة الحواس وترفض كل معرفة فطرية وانتقد الروح التقليدية والقول بالخوارق.

- **أفكاره السياسية:**

- دحض فكرة الحق الإلهي للملوك.
- ركز على حقوق الأفراد وحريتهم فقد أكد على وجود حقوق طبيعية للفرد (الحرية والملكية) لا يجوز أخذها.
- اقترح لوك اللجوء إلى تنظيم سياسي معين قادر عل ضمان حقوق الأفراد في مواجهة أي اعتداء عليها وهذا بالإقرار بوجود سلطات ثلاث هي السلطة التشريعية والتنفيذية والسلطة القضائية.
- لم يحاول لوك أن ينشئ مجتمعا سياسيا قائما على أساس الخضوع من جانب والإخضاع من جانب آخر، فالمجتمع ليس عبدا للدولة بل إن الدولة هي أداة للمجتمع.
- فرق لوك بين الدولة والمجتمع كما فرق بين الحكومة والمجتمع وعليه فإن ثورة ضد الحكومة لا يعني القضاء على المجتمع وبالتالي العودة إلى حالة الطبيعة كما تصور هوبز.
- يعتبر لوك بصفة عامة من أنصار النظام البرلماني وتقييد سلطة الملك.

بارون دي مونتسيكيو (1689- 1755)

ولد ببوردو سنة 1689 تعبر من أهم مفكري القرن الثامن عشر بحيث انتقل الفكر السياسي من انجلترا إلى فرنسا، من عائلة أرستقراطية عريقة في النبالة ورث عن عمه الثروة واللقب ورئاسة برلمان بوردو، عاش في فترة تميزت بالديناميكية السياسية (نهاية حكم لويس الرابع عشر 1715 الذي مثل حكم الطاغية المطلق)، ومن أهم كتبه روح القوانين.

- **أهم أفكاره السياسية:**

صنف الحكومات إلى ثلاث الملكية والاستبدادية والجمهورية والنوع الثالث إلى شكلين الأرستقراطية والديمقراطية:

فالملكية في رأيه هي حكم الفرد وفقا للقوانين، والتي تقوم على مبدأ الفخر أو الشرف أي التفرقة في الرتب والهيبة والمكانة وعليه فإن الأفراد قد يقومون بأعمال ضخمة أو عظيمة في سبيل الوصول إلى رتبة أعلى أو مكانة.

أما الاستبدادية فهي حكم فرد وفقا لرغباته الخاصة، والتي تعمل على أساس مبدأ القوة وهي تعمل طالما الأفراد يعيشون في رعب مستمر من العقاب العشوائي للحاكم المستبد وعليه فإن السلطة تكون في يد الحاكم ومستشاريه الذين يفقدون وظائفهم وأرواحهم وفقا لرغبات الملك.

أما الجمهورية فهي حكم مجموع الشعب أو جزء منه والتي تنقسم إلى:

- الديمقراطية في رأيه تحكم على أساس مبدأ الفضيلة السياسية وتعني حب الدولة وحب المساواة وفي ظل النظام الديمقراطي فإن المواطنون يختارون وفقا لمبدأ المساواة وإمكانياتهم وقدراتهم والسلطة التشريعية يجب أن تكون بيد الأفراد كما أن التصويت يجب أن يكون عاما.
- أما النظام الأرستقراطي فالمبدأ السائد فيه هو الاعتدال الناتج عن الفضيلة وليس من التكاسل وعدم الاهتمام والموظفون يختارون عن طريق الانتخاب والسلطة التشريعية تركز في مجلس أعلى مختار والانتخابات سرية.
- يرى أن القوانين في النظام الديمقراطي يجب أن تنمي المساواة وأنها من الممكن أن تنظم وتساوي الثروة، أما في ظل النظام الارستقراطي فالقوانين يجب أن تطبق باعتدال بحيث لا تتطرف في استغلال الطبقات الدنيا وتعمل على المحافظة على سلطة وهيبة الطبقة الأرستقراطية.
- استخدمت أفكاره كالقاعدة التي تقوم عليها الدساتير في العالم منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم، بالإضافة إلى مساهماته في مبدأ فصل السلطات، وينظر له أيضا أنه المؤسس الحقيقي للمنهج التاريخي حين أخرج التاريخ من الأبعاد والمحدوديات الزمنية والمكانية المحددة بالمطالعات والرحلات حيث درس بشمول التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في كل زمان ومكان فهو تناولهم حسب ظروفه البيئية المؤثرة.

جون جان روسو (1712- 1778)

يعتبر روسو من أهم المفكرين السياسيين وأكثرهم شهرة أسهم في إعادة تشكيل المؤسسات السياسية القائمة حيث اعتبر مفكر الثورة الفرنسية عاش حياة متنقلة عنوانها الفقر والتشرد.

- **أهم أفكاره السياسية:**

الإرادة العامة عند روسو: تحدث روسو عن ثلاثة أنواع من الإرادة: إرادة الفرد، والتي اعتبرها أنانية لأنها تعبر عن مصالح الفرد، أما إرادة المجموع فهي إرادة معبرة عن الاختلافات داخل الجماعة أما الإرادة العامة فهي تمثل إرادة الجماعة ككل معبرا عنها برأي الأغلبية ويوضح أن السيادة المطلقة هي الإرادة العامة التي تعبر عن الجماعة ككائن معنوي مستقلة عن الأفراد (لا تتميز بالأنانية ولا تخطئ ولا تنحاز) فالسيادة عنده وإن كان مصدرها الشعب إلا أن مستقرها الإرادة العامة الممثلة للشعب.

الحكومة عند روسو: يؤكد روسو أن لكل عمل حر سببين أحدهما أدبي وهو الإرادة التي تعني العمل، والآخر طبيعي وهو السلطة التي تقيده والهيئة السياسية تتميز بالقوة والإرادة هذه باسم السلطة التشريعية وتلك باسم السلطة التنفيذية ولا شيء يصنع بدون تعاونهما والسلطة التشريعية خاصة بالشعب ولا يمكن أن تكون إلا خاصة به.

يعرف الحكومة بأنها: "هيئة متوسطة قائمة بين الرعايا والسيد ليتواصلا، موكول إليها تنفيذ القوانين وصياغة الحرية المدنية والسياسية"، فالحكومة بالنسبة له هي بمثابة عامل خاص يجمع بين القوة العامة وسيرها وفقا

لإرادة العامة ويمثل حلقة نضال بين الدولة والسيد، ويؤكد أنه على مستعد دائما للتضحية بالحكومة في سبيل الشعب لا بالشعب في سبيل الحكومة"

المشاركة السياسية: ينادي روسو بصفة عامة بضرورة اشتراك الشعب السيادة السياسية مباشرة وهو لا يؤمن بالممثلين السياسيين عن الشعب فهو يعتبر وجودهم تقصيرا من جانب الأفراد في الحياة السياسية فيقول "فإن الشعب إذا جعل لنفسه ممثلين عادة لا يكون حر وعادة لا يكون موجودا وفي تحليله للمشاركة السياسية يتناول روسو الديمقراطية المباشرة حيث يؤكد إمكانية تطبيقها في الدول الحديثة على رغم من تزايد عدد السكان وذلك عن طريق أن تكون اجتماعات الشعب بالتناوب بين المدن الرئيسية المختلفة من أجل ممارسة السلطة التشريعية وتجديد ثقته بالحكومة وبالموظفين العموميين وهكذا نتغلب على صعوبة التقاء كل أفراد الشعب في الدولة.

جون ستيوارت ميل (1806 – 1872):

يعتبر من أهم مفكري القرن التاسع عشر وهو بلا منازع أهم مفكري ذلك القرن من الانجليز ومن أهم رواد الاتجاه الليبرالي الغربي، ولد جون في لندن وهو أكبر أبناء جيمس ميل الذي التقى بعد عامين من مولد ابنه بـ" جيرمي بنثام" رائد الاتجاه النفعي، درس جون اليونانية واللاتينية والأدب والتاريخ والفلسفة ثم القانون شغل مساعدا لوالده في شركة الهند الشرقية وظل في الشركة إلى 1858، انتخب عضوا في مجلس العموم لمدة ثلاث سنوات كرس حياته في سنواته الأخيرة للكتابة وقد عاش معظمها في فرنسا.

مبدأ النفعية بالنسبة له " عقيدة ومذهب وفلسفة وديننا" وقد كرس جهده لهدف الإصلاح الراديكالي، قام بكتابة عشرات المقالات والأبحاث والكتيبات أهمها "عن الحرية" و "عن الحكومة التمثيلية" و "عن النفعية".

- **أهم أفكاره السياسية:**

رأيه في النفعية: نادت النفعية بمبدأ مبسط قوامه السعي لزيادة اللذة أو السعادة والابتعاد عن الألم، وقد اختلف جون ميل مع سابقيه فيما يتعلق بأن الدولة يجب أن تقوم بتحقيق أكبر سعادة لأكبر عدد بالإضافة أن طبيعة سعادة في رأيه يجب أن تكون كيفية وليست كمية.

اعتبر المنفعة المعيار النهائي لكل المسائل الأخلاقية ولكن المنفعة يجب أن تكون بأوسع معاني الكلمة وتقوم على أساس من المصلحة الدائمة للإنسان بوصفه كائنا تقدميا.

رأيه في الحرية: يعتبر أكثر من دافع عن الحرية وقد ركز على كرامة وهيبة الفرد وعلى ضرورة الدفاع عنه ضد أي قيود عشوائية تفرض عليه وقد عبر عن خوفه من استبداد الأغلبية بالأقلية.

قام بتعريف الحريات الضرورية للفرد وهي:

حرية الضمير: وتشمل حرية التفكير والعقيدة وحرية إبداء الشعور حرية العمل والنشاط الذي يمارسه الفرد وحرية التصرف عامة حرية التجمع والتكتل بين الأفراد أي حريتهم في تكوين اتحادات وجماعات لا يكون الغرض منها إلحاق الضرر بالآخرين اهتم بحرية الفكر ورأى يجب أن تكون مطلقة وغير مقيدة حيث اعتبر أن البشرية أجمعها إذا اختلفت معه لا يمكن إخراس صوته.

الحكومة التمثيلية : أوضح أن أفضل أنواع الحكومات التي توجد فيها السيادة للجماعة ككل أي أنها تتحقق في النظام الديمقراطي وهو ما أطلق عليه الحكومة التمثيلية واعتبره لحرية الفرد فالسيادة في الدولة يجب أن تترك في أيدي الشعب، أوضح أن مهمة ممثل الشعب ليس التشريع بل الرقابة فعليهم أن يراقبوا عمل الحكومة كذلك عليهم تعيين أعضاء جدد في الحكومة كلما كانت تصرفات الحكومة تتعارض مع مصالح ورغبات الشعب.

نادى بإدخال عدة إصلاحات في النظام الانتخابي البرلماني وضرورة تنظيم دستور الدولة لضمان توظيف الكفاءات الممتازة في المجتمع ومن أهم اقتراحاته:

- ✓ رأى أنه لا تترك عملية اختيار الطبقة الحاكمة للغالبية الجاهلة.
- ✓ ذكر أن الحكم الفردي يتعارض مع مبدأ السيادة الشعبية ووظائف الدولة الحديثة لذلك أيد النظام البرلماني.
- ✓ بما أن البرلمان هو ممثل الشعب فلا يمكنه أن يقوم بأعباء الحكم فإنه يتعين اللجوء إلى خبراء وللقيام بوظائف الحكم مع قصر وظيفة البرلمان على الإشراف والمناقشة.